الغُرَبَاء

قصة بقلم حسين قاسم

رأيته اكثر من مرة .. ولكن اين ؟

في شوارع « سان باولو » ؟.. كان يبتاع بعض القمصان ..
في دروب قرية ؟.. رأيته يسير واهنا مع حقيبة صفراء اللون باهتة ..

في مطعم ؟.. كان يمضغ رغيفا مع كوب ماء ..
في « كامبوسي » (1) التقيت به وجها لوجه .. كان ذاهبا اليها ، في حين كنت قادما منها ..

ـ الاخ من فلسطين ؟
سألته وأنا ارمي حقيبتي الى الارض .
ـ نعم .. ومن مدينة « رام الله » .

أجابني وهو يزفر من التعب .
ـ رأيتك اكثر من مرة ، ولكنني لم أشأ ان احادثك ..
فهز رأسه قائلا :
ـ اشعر بذلك ..
ـ كيف ؟! كيف تشعر بذلك ؟

سألته وقد أحسست بوخز يؤلم فؤادي .
ـ انكم لا ترغبون الاختلاط بنا فتبتعدون عنا .. ونحن ازاء ذلك نبتعد عنكم .. انني فلسطيني .. وكوني فلسطينيا أشعر انني ارتكبت اثما ما في حياتي ..

ـ أرجوك .. انني لا اقصد اهانتك .. انه سؤال زلق به لساني .
ـ سامحك الله ..
ـ كيف وجدت الغربة ؟..
ـ لقد مارستها بعد ان شردنا الصهاينة من بلادنا .. فلسطين يا أخي كانت كل شيء بالنسبة لنا .. ولكنها ضاعت .

ـ فلسطين لن تضيع .. سيأتي يوم تعودون فيه اليها ..
ـ سيأتي يوم ..

وتملكته ضحكة هستيرية .. واستطرد :
سيأتي يوم نعود فيه الى فلسطين !! اوهام يا صاحبي .. اوهام نخدر بها أعصابنا ..
ثم حملق في وجهي كالمجنون ، قائلا :

ـ اين نحن من فلسطين اليوم .. انا في « البرازيل » مع آلاف غيري . ولي ابناء عم في « فنزويلا » مع الاف غيرهم . وفي « الارغواي » .. وفي « الارجنتين » .. وفي « كولومبيا » .. وحتى في « اميركا الشمالية » .. ارادوا ضياعنا فمنحونا « باسبورا » دوليا ..

وبحثت يداه في جيوبه تبحث عن « جواز السفر » واذ وجده هتف :
ـ اقرأ .

وقرأت .. كان يحمل تأشيرة دولية ويحق لحامله السفر الى اي بلد يشاء ، وان له من الحقوق والواجبات ما للمواطن من حقوق وواجبات ..

ـ مواطن دولي ؟!..
ـ نعم .. وهذه هي مأساتنا « مواطن دولي » ..
ـ ذنبكم .. لقد تخاذلتم في حربكم مع اليهود ..
ـ نحن .. نحن تخاذلنا مع اليهود ؟
وبانت على وجهه امارات الغضب .. واستطرد :

ـ اظن انك تقصد « اليهود العرب » .. نعم يا صاحبي لقد تخاذلنا معهم بعد ان باعوا أرضنا وقرانا الى اليهود .. لقد عانينا ارهابا وعدوانا ، مشينا بعد سقوط « لواء الجليل » في ايدي الصهاينة .. سبع دول حاربت من اجل فلسطين .. والسبع الدول نفسها هزمت في حرب فلسطين .. كنا نحارب اليهود ، وكانت سبع دول تحاربنا من اجل اليهود .. أتعرف من كان القائد العام للجيوش العربية يومذاك ؟..

ـ اعرف .. انه « غلوب باشا » قائد الجيش الاردني ..

ضحك قائلا :
ـ نعم .. « غلوب باشا » . ونحن نطلق عليه اسم « ابو حنيك » .. جاسوس انكليزي . مهد له الانكليز الالمام بعاداتنا وعوائدنا .. كان يعرف من فلسطين كل دروبها ومسالكها .. كان يعرف الشوارع المظلمة ، والمدن البعيدة ، وحتى القرى النائية الضائعة في سفوح الجبال .. كانت فلسطين يا صاحبي مرسومة في بؤبؤي عينيه رسما واضحا .. فلذلك حين صدر المرسوم الملكي بتعيينه قائدا لجيوش سبع دول ، أظهر بما له من دهاء ، عدم مبالاة ، في حين كانت شفتاه تتلمظان سطور المرسوم .. انا ابن فلسطين . وقد عشت في خضم المأساة شهورا طويلة . لقد اختفت المدات والذخائر بعد صدور

(1) « كامبوسي » : قرية برازيلية تقع في ولاية « سان باولو »

المرسوم ، واقتصرت المساعدات العسكرية عـــلى الطعام والشراب .. أيحارب « ابو حنيك » أبناء عمه ؟.. كانت سلطته تنهي وتأمر فـــي مصير الجيوش العربية ..

ـ حتى في مصير الجيوش العربية امتدت سلطته ؟..

ـ نعم .. وبعد صدور المرسوم ، ظلت الجيوش العربية حيـــث هي ، لم تتقدم خطوة .. كانت الاوامر تأتينا مشوهة غير واضحـــة ، فتتقدم حيث لا يكون امامنا عدو . او ننزلق في كمين أعد لنا سابقا..

ـ افهم من حديثك انك كنت جنديا في المعركة ؟..

ـ لقد التحقت باحدى الكتائب التي تمركزت في ضواحـــي « رام الله » . وقد حدث ان امرني قائد الكتيبـــة ان انسف الجسر الذي يفصل « رام الله » عن فرقتنا ..

ـ وهل قمت بنسفه ؟

ـ مهمة امرت بانجازها ..

ثم ضحك كالمجنون ، وأردف :

ـ لقد كان الجسر المنفذ الوحيد الذي يوصلنا الى قرانا .. وكان علي ان اقوم بنسفه .. حملت المهمة ، وسرت مع خيوط الفجر باتجاه الجسر . كانت المهمة سهلة .. فالجسر محاط بأسلاك شائكة ، وعلي ان اعبر الاسلاك ليصبح الجسر مع دعائمه الاربعة في متناول يدي .. ولا شيء بعد ذلك . فكل شيء عند قائد الكتيبة معد .. لقد مرت على الجسر كتائب وقوافل عديدة ، ولكن احدا لم يفكر في ازالته ، اللهـم الا قائد الكتيبة التي التحقت بها .. وقد عبرت الجسر يوم التحاقي بالكتيبة ، ولكنني لـم افكـر وانا اعبره في نسفه . ولعلني لم احصر فكري .. اذ كان الممر الوحيد الذي يوصل الكتائب العربية بالقـــرى الغربية . وقد سمعت ، كما سمع غيري باستعداد الدول العربيـــة يوم ذاك ، لهجوم اسرائيل ، ورغم ان الاستعداد لم يكن مفاجأة لليهود، فقد شعرت ان النصر سيكون دون ريب حليفنـــا .. وبان لي الجسر . ظلالا سوداء ارتسمت في عيني ، وانقشعت هذه الظلال حين لم يعـد يفصلني عنه سوى بضع خطوات .. وأدركت لحظتذاك ان الخطـوات القادمة ستكون اشد خطرا . فالانوار الكاشفة كانت تمر كل عشرين ثانية .. وحسبت الزمن الذي سيستغرقه وصولي الى احدى القناطر الاربع .. مئة ثانية وامسي تحت احداها . ولولا الاسلاك الممتـدة امامي لاستطعت ان اعبر بسهولة .. مئة ثانية . ما قيمة المئة ثانيـة في حياة انسان ؟ لحظات تمر . ومرت فوق رأسي هذه اللحظـات .. وأعقبتها اخرى .. واخرى .. وانا مكاني . كنت لا اعرف ما اريد ، وقد ندمت على قبولي المهمة .. كانت الاسلاك تخيفني . احس فيهـا موتي .. مئة ثانية مرت . ما أقصر الزمن اذا بدا الانسان في تعداده .. « هل اتحمل الموت » ؟!.. سألت نفسي حين بدأت بقطع الاسلاك . ومرت مئة اخرى .. صدقني انني لم أتمرس على البطولات ، فللبطولات رجال تصمد في وجه العقبات . لقد جبنت لحظتذاك .. وسألت نفسه وانا في لحظة جبن : « اي نصر سنحققه في نسفنـــا الجسر ؟.. » لا شيء ، سوى اننا سنمسي بعيدين عن « رام الله » وعن القـــرى المجاورة لها . فاذا ما قمت بنسفه ، فالقرى ستحرم مع غيرها مـــن المساعدات العسكرية وقد تمسي فريسة لاي عدوان يهودي . وعـدت أدراجي الى الكتيبة ، فوصلتها قبل بزوغ الشمس .. واتجهت حال وصولي الى خيمة القائد ، فاستغرب عودتي ، وبادرني بلهفة :

ـ « هل نسف الجسر ؟! »

فأجبته بهدوء :

ـ نحن بحاجة اليه .. انه الممر الوحيد الذي يوصلنا الـــى القرى الغربية ..

ـ « انها اوامر .. انك في ترددك تحملني مسؤولية كبرى .. »

ـ انني احمل عنك هذه المسؤولية ..

ـ « انت ؟ »

ثم رمقني بغضب ، وأمرني ان اغـــادر خيمته . ولقد خشيت غضبه .. انت تدرك معنى عدم التقيد بالاوامر في ساعة الحرب .. وأدركنا ، ولكن بعد فوات الاوان ، خيانة القائد لنا .. ولم نصح الا في اليوم التالي بعد ان نسف الجسر ليلا .. اذ افتقدنا القائد فلم نعثر له على اثر ..

ـ سامحك الله يا صاحبي .. كان عليك ان تكاشف افراد الفرقة حال وصولك ..

ـ لقد كتمت عنهم الامر .. اذ كانت المهمة التي امرت بها سرية ، ولكنني ندمت حين بانت لي خديعة القائد . كنا يومها في الثلاثين من تشرين الاول .. لا زلت اذكر هذا التاريخ . وفي اليوم نفسه سقط « لواء الجليل » .. وبسقوط « الجليل » انهارت المدن وعمت المذابح انحاء فلسطين .

وتنهد صاحبي ، وهمس بصوت مبحوح :

ـ فلسطين كانت كل شيء لنا ..

ـ ولكنها ستعود اليكم ..

ـ لا تخدر اعصابي من جديد ..

ثم ضحك في بلاهـــة .. ورأيته ينحني بجسمه ويتنـــاول حقيبته مودعا .

وابتعد في دروب « كامبوسي » .

بيروت — حسين قاسم

مؤلفات سارتر

* **دروب الحرية**

رائعة سارتر باجزائها الثلاثة

١ ـ سن الرشد ٥٥٠ ق.ل

٢ ـ وقف التنفيذ ٦٥٠ ق.ل

٣ ـ الحزن العميق ٥٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **الغثيـــان**

اعمق روايات سارتر ٣٥٠ ق.ل

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **محاورات في السياسة**

بالاشتراك مع روسيه وروزنتال

ترجمة جورج طرابيشي ٢٠٠

* **عاصفة على السكر (ط ٢)**

ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٣٠٠

* **عارنا في الجزائر**

ترجمة عايدة وسهيل ادريس ١٠٠